الزواج

معناه ، والاحتفال الفاروقى به

بقلم على النجدى ناصف

مفتش المعارف بالاسكندرية

لم تكن للزواج فى العصور الأولى رابطة مرعية ، ولا للأسرة نظام مرسوم . ولم تكن ثمة صيغ تعاقد يتم بها الاملاك ، وتصير بها المرأة إلى عصمة بعلها وحماه ، وإنما كان هناك تزاوج فطرى ، لا يكاد يختلف عن تزاوج الحيوان . ولا تزال بعض القبائل تتزاوج فى دنيا القرن العشرين على النمط الذى وصفنا ، أو شبيه به : فهذه يتحقق عندها الزواج بالاعتداء والسبى ، وتلك تتم عندها مراسمه بنار يستوقدها الزوجان ويجلسان إليها ، والثالثة ينعقد عندها الزواج بمهنة بيتية تؤديها المرأة للرجل ، وعلى هذا النحو . فلا احتفال بالزواج ، ولا اكتراث له ، وقلما يكون بين الرجل والمرأة من دواعى الحب والتعاطف إلا ما يكون

بين الحيوان والحيوان . وبقاء المرأة فى حوزة زوجها رهن بسلامته من عدوان المعتدين ، وغلبتهم عليه .

أما قيمة المرأة فى قومها فلم تكن موحدة فى القبائل والشعوب ، ولا مستقرة على حال واحدة ، وإنما كانت مختلفة الشأن ، مضطربة الأوضاع ، وأكثر ما كانت تتأثر به فى هذا وذاك الصبغة الغالبة على القبيلة أو الشعب ، ونوع الحكم الذى كان يسيطر عليه .

فالمرأة فى القبيلة الحربية كانت أهون شأنا ، وأضيع حقا ، من أختها فى القبيلة الصناعية ، المخلدة إلى الدعة والسلم ؛ لأن الحرب أجدر أن تباعد بين المرأة والرجل بما تكشف من ضعف المرأة ، وقصور طاقتها عن مجاراة الرجل فى المخاطرة وركوب الأهوال ؛ فيحمله ذلك على الإدلال عليها ، بل التبرم بها ، وإنكار كل مزية فيها وتتمثل له كلا عاجزا لا منفعة له ، ولا خير يرجى منه ؛ ولا كذلك الصناعة ؛ لأن للمرأة فيها مجالا ، ولها بأعمالها اضطلاع وبصر . فأسباب المشاركة فيها موصولة ، والتفاهم من طريقها ميسر . وهى بذلك جديرة أن تكشف للرجل عن بعض مزايا المرأة ، وأن تمثلها فى عينه خلقا صالحا يمكن الانتفاع به ، والتعويل عليه ، فيخفف من غلوائه وتجبره ، ويثوب فى معاملتها إلى بعض الحكمة والاتزان .

لذلك كان للمرأة فى المجتمع المصرى القديم مقام معلوم ، لا يكاد يقل عن مقام الرجل فيه ؛ إذ كانت تحضر معه المحافل العامة ، وكان طلاقها صعبا نادراً ، وتعدد الزوجات على إباحته لم يكن شائعا ولا متداولا .

أما المرأة الصينية فكانت حالتها الاجتماعية متأثرة بأسلوب الحكم فى بلادها تأثرا واضحاً ، فكان خضوع المرأه لطغيان بعلها تاما مطلقا ، كخضوع الشعب لطغيان عاهله ، واستسلامه لارادته وأهوائه ولولا أن الصناعة ألانت من قسوة الصينيين على المرأة ، ولطفت من إحساسهم ، لظلت معاملتهم لها قاسية غشوما ، فقـــد كان الرجل يشترى المرأة كما يشترى سلعة ، وكان يتسرى ما شاء من النساء غير مقيد بعدد معين ، وكان للرجل أن يبيع زوج ابنه المتوفى كما يبيع أثراً من آثاره . كـذلك كانت المرأة الرومانية فى عصور الاستبداد ذليلة مضيعة الحقوق ، فقد كان للرجل أن يبيع زوجته وأولاده إذا شاء ، وأن يقتل منهم من يشاء ويستحيي من يشاء ، لا معقب لحكمه ولاراد لارادته .

ذلك هو معنى الزواج فى القرون الأولى ، وهو « كما ترى »

معنى فطرى يلائم طبيعة الحياة التى كان عليها الانسان إذ ذاك . أما فى العصور الأخرى فقد تغير معناه على التدريج وأصبح الفرق بين المعنيين اليوم ، كالفرق بين ما كان عليه الانسان من همجية مظلمة وتأخر شديد ، وما صار إليه من مدنية باذخة ، وتقدم عريض .

فالزواج اليوم مطلب من مطالب الفرد فى حياته الخاصة ، وحاجة من حاجات المجتمع لا غنى عنها فى تعاون آحاده على البقاء ، وصيانة كيانه من عوامل الفساد والانحلال . فهو متعة شخصية تنزع إليها النفس فى حال صحتها ، واستقامة طبعها ، وسلامة فطرتها من التضليل والزيغ ، إيثارا للأنس والاستقرار ، والتماسا للتخفف من متاعب الحياة وهمومها ، بما تفيض الزوجة الصالحة من العطف والرحمة ، وتشيع من الرفاهة واللطف ، وما تقدم من التشجيع والمساعدة ، وما تفسح من الآمال ، وتثير من العزائم . وهو ضرورة لازمة من ضرورات الاجتماع ، لأنه بركة تزكو بها الحياة ، ويتتابع بها النسل جيلا بعد جيل ، وعصمة تصون النفس ، وتباعد بينها وبين كثير من المآثم والشرور ، ورابطة تؤلف بين الأسر ، وتقضى على الفوارق بين الأصهار ، فإذا هم أكفاء متعادلون ، لا اعتبار بينهم لاختلاف الجنس أو التفاوت فى الجاه والثراء .

لذلك دعا الله إليه ، ورغب فيه فلاسفة الاجتماع من أنصار التعمير والبناء ، وعنيت به الأمم الطموح كنايتها بسائر المرافق الخطيرة : تشجع عليه ، وتعمل على شيوعه بين طبقات الشعب ، بتيسير أسبابه ، والمعاونة على تكاليفه ، وتصويره فى أعين الشباب واجبا قوميا لا مفر من أدائه ، ذيادا عن حقيقة الوطن ، وإعلاء لكلمته ، وبسطا لنفوذه وسلطانه ، بالاستكثار من جنوده ، وتزويده بمدد من الفتاء والقوة غير مقطوع ولا ممنوع .

ولولا أن جعل الله للنفس فى الزواج متعة ومآرب أخرى ، لغلب الإعراض عنه ، وقلت الرغبة فيه ؛ لكثرة أعبائه ، وثقل قيوده ، وتعدد تبعاته .

ويحسب الزواج من جلالة الخطر ، وضخامة الفضل فى صلاح أمر الانسان ورفع قواعد الأمة ، وتثبيت أركانها ـ أن يباكره مولانا المليك الراشد المحبوب وهو مايزال فى مطلع الشباب ، وتداوة العود ، فضرب بما عمل أبلغ الأمثال للشبان ، ونهج بهم أهدى السبل وأليقها بالرجولة الكاملة ، والوطنية المنتجة ، بعد أن فشا فيهم الاعراض عن الزواج ، ولج بهم النفور منه ، فاستحكمت الأزمة ، وعى بعلاجها

المصلحون ، وأشفق ذوو الرأى والحكمة على مصير هذا البلد الأمين أن تنتابه الأخطار ، أو تعترض فى طريقه المعاطب .

وهكذا عودالله هذه الأمةالكريمة الوفية ، كلمانازلتهاالأحداث أو ساررتها المخاوف فى شأن من شئون حياتها — أن يقيض لها منقذا من أوليائه الأمجاد : يرد عنها عوادى الأيام ، أو يؤامنها من خوف ، ويطمئنها من قلق . وآيات ذلك كثيرة متلاحقة منذ فجر التاريخ إلى اليوم . ومنها فى العصر الحديث هذه المآثر الباقية التى أسداها إلى مصر ساكن الجنان محمد على . حين صارت إليه مقاليد الحكم فيها ، وقد عركتها المحن ، وتلقفتها الفوضى من كل جانب ، فلم تدع شأنا من شئونها إلا عاثت فيه ، ونالت منه نيلا شديدا ، فقد أحيا مواتها ، وأصلح فسادها ، ورد عليها الثقة والرجاء .

ثم جاء إسماعيل على فترة من جده العظيم ، فتدارك غراسه ، وحاطه بأسباب الرعاية والتمكين ، فزكا الغراس وأثمر ، وآتى أكله كريما طيبا .

ثم قامت الحرب الكبرى ، واصطلت مصر بنارها ، وكتب الله لحلفائها النصر ، ولكنهم جحدوا بلاءها معهم ، وأبوا أن يعترفوا

بحقها فى الحرية والكرامة ، كالدول الرشيدة المستقلة ، فغضبت غضبتها ، وهبت تسترد حقها المهضوم كاملا غير منقوص ، وبرزت لها إنجلترة فى الميدان تذودها عنه ، وتنكر المطالبة به ، وخلت الدول بينهما ، فالتقتا وجها لوجه ، واستمر التدافع والنزاع ، وإنهما فى التكافؤ لعلى طرفى نقيض ، فهذه مصر مسالمة عزلاء ، وتلك إنجلترة مستكملة العدة والعتاد ، وقد أبطرها الظفر فى الحرب الكبرى فعتت عن وعودها ، ولم تكف عن الوعيد ، وانطلقت تعمل على صرف الأمة عن مطالبها بالقوة حينا ، وبالخداع حينا آخر

أحداث جسام ، وأهوال فوق أهوال ، وتجارب قاسية ، تتلوها تجارب أشد قسوة ، وأنكى أثراً ، صمدت لها البلاد أكثر من عشرين عاما ، فكانت فى أثنائها أحوج ما تكون إلى قائد أيد حاذق ، يحسن قيادها فى الجهاد ، ويعيد نهضتها الفكرية أن تجمد ، أو يطوف عليها طائف انتكاس ، فاختار الله لها فؤادا ، فكان رجل الساعة حقا ، بما اجتمع له من الأمية ، ونفاذ العزم ، وصلابة الخلق ، ورباطة الجأش ، ولم يرجع إلى ربه حتى رأى بعينيه أساس الصداقة والتحالف ، توضع بين مصر وإنجلترة ، فى جو من المودة وحسن التفاهم .

عقدت المحالفة بين الأمتين ، وآن لمصر بعقدها أن تدع جهاد خصمها ، وتنصرف إلى جهاد نفسها . وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر كما روى فى الأثر . وعلى قدر حظ الأمة من النجاح فيه ، يكون حظها من النجاح فى معترك الحياة ؛ لأن الأخلاق قوام الأمم ، وملاك أمرها ، ومصر قد أنهكتها المحن ، وبهرها زخرف المدينة الغربية ، ورانت عليها تقاليد العصور الخالية ؛ فغيرت من سمتها ، ونالت من أخلاقها ، وأضعفت ثقتها بمقوماتها ، فوقفت حيالها حائرة لاتدرى ماذا تصنع بها ؟ وليس أهدى من الدين سبيلا ، ولا أبصر منه طبا بتربية الأخلاق ، وتقويم العوج ، وتكوين الشخصيات الجادة .

فكانت البلاد منذ أظلها العهد الجديد فى أشد الحاجة إلى قدوة عالية ، وهداية رشيدة ، توجهها إلى الدين ، وتسلك بها صراطه المستقيم فجاءها الفاروق « أيد الله ملكه ويمن عهده !! » فأعلى كلمة الدين ، واعتصم بالله فى جميع أمره ، وفعلت هذه القدوة الصالحة فعلها المرجى فى الناس فاهتدى الضال ، ووثق المستريب ، واستقر الحائر المضطرب ، وعمرت المساجد بالمقيمى الصلاة ، وغشيها من لم يكن يغشاها ، ولا يدرى ما الخير فى غشيانها ؟

وأعتقد أن سيكون قرانُ المليك السعيد . فاتحةَ عهد طيب فى حياة الشباب المصرى إن شاء الله ، عهد تسوده الرغبة فى الزواج والإقدام عليه ، فقد يقال «الناس على دين ملوكهم». ولن يكون رائد الشبان فى هذا المقام محاكاة المثل الأعلى الذى ضربه لهم المليك التقى ، والتأثر بروحه الطاهر وحسب ، ولكن سيحفزهم إلى الزواج قبل هذا أو ذاك الحب الخالص لشخصه المحبوب ، ذلك الحب الشامل ، الذى تنطوى عليه كل نفس ، ويفيض به كل قلب ينبض بالحياة ، فى هذا الوادى السعيد .

ولقد درج الإنسان على حب الفرح والتولع به ، فهو لذلك يتلمسه فى شتى المناسبات وفى الذكريات السعيدة ، ويتخذ له من هذه وتلك أعيادا فردية ، وأخرى قومية عامة . والقران من غير شك مناسبة ذات شأن فى حياة الفرد ، وذكرى الاحتفال به حين تتتابع الأيام عليه — من أسعد الذكريات وأحبها إلى قلبه ؛ لأن القران فاتحة عهد جديد فى حياته ، يقوم على الإيثار ، والتواد ، والتعاون ، والاستقرار ، والجد ، والإحساس بالتبعة ، وكمال الرجولة ، فهو جدير أن يكون مبعث فرح ، ومدعاة احتفال . وما أبلغ العرف العام ، وأسلم

ذوقه ، وأشد توفيقه ، حين سمى الاحتفال بالقران فرحا ، وأطلق تسميته به من كل قيد وتخصيص ، فغلب اسم الفرح عليه ، واستأثر هو به ، كأن الفرح بغيره غير جدير أن يتسمى باسمه .

وإذا كان الإنسان فى فرحه الشخصى لا يأمن الشطط ، والوقوع فى الإسراف ، بما يزينه له التفاخر ، ويغريه به البذخ ، وتدفعه إليه العاطفة الجموح ، أو التقليد الخاطىء ، أو نحو ذلك . فإنه ليكون بمنجاة من ذلك كله فى أفراح الملك مهما يفتن فى ألوان المباهج . ويصطنع من ضروب الزينة ؛ فإنما تشرف الأشياء بشرف متعلقها ، وتفيد من عظمته وجلاله . ولقد يكون العمل من واحد بعينه رذلا ممجوجا ، بل سوءا مستكرها ، ويكون هو نفسه من آخر مزية وفضيلة ، لا يجمل به أن يتخلى عنها ، ويصير إلى نقيضها . والملك فى سماوة مجده وشرف مكانته ، رمز عظمة الأمة ومظهر كرامتها وعزها ، ومناط السيادة منها ، فالتأنق فى الاحتفال لقرانه ، والافتنان فى التعبير عن البهجة به ، والمشاركة فيه ، ولاء لصاحب التاج ، وإخلاص لعرشه الرفيع ، ووطنية سامية ، ودعاية ناجحة لعظمة مصر ، وفخامة شأنها ، وتصوير لبيغ الدلالة على نضوج الشعب ، وكمال تربيته .

ولقد أدركت الأمة ذلك كله ، وفهمته على وجهه الصحيح ، وقدرته حق قدره ، فأحسنت القيام بواجبها فى الاحتفال بقران الفاروق كل الإحسان . ولم تدع وسيلة من وسائل التعبير عن فيض الحب ، وخالص الولاء ، وعظيم الابتهاج إلا اصطنعتها ، وافتنت فى اصطناعها ماشاءت وشاء لها الذوق السليم ، والطبع الكريم ، فإذا المهرجان فريد فى نوعه ، لا نعرف له نظيرا فى تاريخ مصر كله .

فما من مدينة ، ولا قرية ، ولا دسكرة فى أدنى البلاد وأقصاها إلا أخذت بنصيب من المشاركة فى البهجة على وجه من الوجوه ، وما من أحد فى مصر من الوطنيين والأجانب على اختلاف السن ، وتباين المنازل والأقدار — إلا انشرح صدره ، وخفق قلبه خفقه الحنين والتيمن والغبطة والرجاء . بل ما من أداة من الأدوات فى أى ناحية من نواحى الحياة المصرية إلا تأثرت بالاحتفال المبارك . وأدت نصيبها المقسوم فيه ، زينات منسقة ، وأعلام مرفوعة ، وأزاهير منضودة ، وأنوار متلألئة ، وطبيعة مشرقة ، وطبول تقرع ، وموسيقا تصدح ، وأغانىّ ترجع ، وخيل ترقص ، وسيوف تشهر ، ورماح تشرع ، ونيران تطلق ، وطائرات تحلق ، وهتاف يدوّى ، ومحافل تعقد ،

وفنون تعرض ، وثغور باسمة ، ووجوه مستبشرة ، وحركة ونشاط فى كل شىء .

وثمة مزية جليلة ، بل مأثرة مباركة شاملة ، اقترن بهـــا قران الفاروق العظيم على نمط فذ . لا أحسب أن للبلاد عهدا بمثله فى أى عصر من العصور . تلك هى الصبغة الشعبية التى اصطبغ الاحتفال بها ، والروح الإنسانى العطوف الذى سيطر عليه ، وظهر فيه على صور شتى ، تتجه كلها وجهة واحدة ، وتلتقى عند غاية واحدة كذلك . هى البر ، والترفيه ، وإدخال السكينة والبهجة ، فانهلت الصدقات من كل جانب غيثاً مدراراً على دور البر والفقراء ، وحملت الهدايا إلى المرضى فى مراقدهم ، ومدت الموائد ، وأعدت الكسا ، فأصاب من هذه وتلك البائس والمحروم ، فكان الاحتفال بحق موسم بر ومرحمة ، ومهرجان غبطة واستبشار .

بارك الله فى الفاروق من ملك مرجو الخير ، مؤيد الملك ، ورضى الله عن فريدة الجيل من ملكة سعيدة الجد ، ميمونة الطالع ، وأقر الله أعينهما ، وأمتع البلاد بحياتهما ، وجعل قرانهما المبارك مقرونا بالسعادة والرفاء والبنين !!

على النجدى ناصف